مكتبة الاسكندرية

زعم بعض تأخري المؤرخين ان عمر بن الخطاب (رض) أوعز الى عمرو بن العاص لما فتح المسلمون مصر ان يحرق مكتبة الاسكندرية وكان فيها مؤلفات الحكماء الاقدمين، فانقطع بذلك سند العلوم والصنائع والاختراعات التي عرفت وبعبارة ثانية محيت المدنية القديمة وعاد العالم في جهالة جهلاء . مسألة شغلت بال الباحثين والمفكرين . وقد الف احد افاضل الاستانة «محمد منصور» كتاباً بالتركية سماه مكتبة الاسكندرية وذلك عقيب مناقشة دارت بينه وبين بعض كتاب تلك العاصمة في احدى المجلات العلمية التركية منذ نحو اربعين سنة . فتصفحت الكتاب وعربت بعض صفحاته المتعلقة بحريق هذه المكتبة وهاك ما نقلته ملخصاً :

هلك اسكندر المكدوني فانقسمت مملكته بين قواده واستولى على مصر بطليموس سوتير وكان محباً للعلوم والمعارف واذ رأى تفرق حكماء اليونان ايدي سبا بما دهم بلادهم من زوال العلم وعفاء المدنية دعاهم الى حماه فاتوه ومعهم بقايا من الكتب المنوعة فاحسن وفادتهم ووفادتها واقام لحفظ هذه المصنفات مكتبة بالقرب من معبد السرابيوم (١) علوها مئة

---

(١) السرابيوم اسم اطلقه اليونان على معبد اوزورهابي اوابيس المتوفى وهو الثور الذي عبده قدماء المصريين واطلقوه على معبد ابيس في منفيس وقد اكتشف ماريت الاثري الفرنسوي سنة ١٨٥٠ بالقرب من سقارة بقايا المعبد والاسراب التي كان فيها ابيس ثم اطلق اليونان هذا الاسم على جميع المعابد التي كان يعبد فيها الثور سيرابيس او ابيس وكان لكثير من المدن الرومية مكان يدعونه السرابيوم مثل رومية وآثينة وبوزول وغيرها وسرابيوم الاسكندرية هذا اشتهرها وفيه كانت المكتبة التي اختلف فيمن ابادها

قدم وهي قائمة على جبل صناعي وسط مدينة الاسكندرية . وروى بعض المؤرخين ان هذا الملك احدث في قصره مكتبة اخرى جعل في الاولى اربعمائة الف مجلد وفي الثانية ثلثمائة الف

ولقد ظلت مكتبة الاسكندرية بعناية بطليموس واخلافه مرجع اهل العلم وكهف . بغدة المعارف الى سنة سبع واربعين ق . م وقد أبدى مالتابرون في جغرافيته والمجمع العلمي الذي ألف في فرنسا للبحث عن الابنية القديمة الدائرة وجغا الديني في تاريخه العام وسائر كتب تواريخ رومية الاسف الكثير لحريق هذه المكتبة برمتها عقيب فتنة نشأت من افتتان احد قياصرة رومية بمليكة مصر كليوباطرة المشهورة بجمالها وذلك لما استحال حكم رومية الى الملوكية وأخذ القيصر يطارد عدوه القائد بومبيس حتى بلغ الاسكندرية وهنا جرى بينه وبين كليوباطرة امور ادت الى إحراق تلك الكتب المنوعة التي بذل النفس والنفيس في استجلابها منذ تأسيس المكتبة الى ان نعق في ارجائها غراب الدمار .

واختلفت روايات المؤرخين في عدد اسفار هذه المكتبة واكد بعضهم ان الكتب التي أثرت عن حكماء اليونان وحدهم تبلغ سبعة آلاف مجلد وهو عدد فيه نظر اذا احصينا ماتنتجه كل مملكة على حدتها في اوربا لهذا العهد من المصنفات على انتشار الطبع والورق وتوفر اسباب التأليف توفراً لم يسبق له نظير في تاريخ العالم . وان معظم حكماء اليونان اشتهروا عند بعض المؤرخين على حين لم يؤثر عنهم كتاب ما . وعليه فبعيد عن التصديق مايدعى بوجود مليون كتاب في مكتبة الاسكندرية . ولو كان الامر على ما ذكروا لاقتضى لكل حكيم من حكمائهم ان يؤلف

ثلاثين أو أربعين كتاباً وهو محال .

عرفت كليوباطرة ان لها يداً في إحراق مكتبة الاسكندرية فاعادت بناء المكتبة تكفيراً عن سيئاتها وجعلت في هذه الخزانة مكتبة برغمة التي اهديت اليها وكان فيها مئتا الف مجلد في رواية . وبعد قليل استولى الرومان على مصر فاشتد ضغطهم على أهلها جرياً على عاداتهم القديمة فسقط عمران الاسكندرية في أوجز مدة ثم اشتغل أكثر الاهلين بحل المسائل الدقيقة من الدين المسيحي الذي كان ظهر في جوار تلك البلاد . واستحالت الحال فبطلت العلوم وانقطع تدريسها في الاسكندرية بالمرة .

واحتفظت دولة الرومان بالعاديات والمصانع التي وجدت في البلاد المتغلبة عليها في أوربا وآسيا وإفريقية الى سنة ٣٩٠ للميلاد أي قبل الهجرة بثثني سنة تقريباً . بيد ان تيودوس أحد قياصرة الرومان ارتأى لجهله وتعصبه ان لا يبقى في المملكة الرومانية غير الدين المسيحي وان تلغى سائر الاديان والمذاهب فاستولى على المعابد وضبط عقاراتها ونفائسها وقامت قيامة الرهبان وحملوا الحملات المنكرة على المعابد والمصانع وهدموها وعاثوا بما فيها جملة .

وفي خلال تلك المدة قام تيوفيل رئيس اساقفة الاسكندرية في جملة من رهبان تلك الناحية وخرب المعبد البديع المعروف بباكوس ثم هدم معبد السرابيوم بعد مجادلات امتدت لألاؤها وفتن شعواء طالت برحاؤها . وهذا المعبد الذي يُعد من بدائع الصنائع وله المقام الأول بين مصانع المملكة الرومانية يماثل بناية الكابتول في رومية . وهدم ما كان في جوار المعبد الآنف ذكره من المكتبة التي أنشئت للمرة الثانية على ما تقدم

وقد تلف في هذه المرة جميع كتبها . ثم أنشئت بيعة في محل هذا المعبد ولكن لم تشيد المكتبة قط ولم يبق لها اسم ولا رسم .

واشتد ضغط الامبراطور جوستنيانوس على عبدة الاوثان وعطل بيوت العلم وقضى باقفال المدرسة التي كان يدرس فيها ديوجنس وهرمياس واتاليوس وبرسيان وداماسقوس وايسيدور وغيرهم من الفلاسفة لانهم لم يرجعوا عن اعتقاد القدماء وينتحلوا النصرانية حتى اضطروا فراراً بأنفسهم عن مواطن المملكة ان يرحلوا الى فارس ولما ارادوا الرجوع الى بلادهم توسط في أمرهم انوشروان ملك الفرس ومن الشروط التي عقدها مع قيصر اليونان ان لايمس هؤلاء الفلاسفة بسوء وان يكونوا احراراً في اعتقادهم على ان مدرستهم عطلت وخربت مع غيرها من مدارس آثينة .

علم بهذا انه كان للامبراطورين تيودوس وجوستنيانوس يد طولى في إتلاف آثار أهل العلم ومصانعهم قديمها وحديثها رجاء بث دعوة النصرانية فدثرت المدنية التي قامت بحسنات الاجيال السالفة والامم الغابرة وذلك بأعمال هذين العاهلين وبما أبداه الرهبان والرومان من ضروب العدوان .

ثم أفاض المؤلف في حملة أهل البندقية والفرنجة على القسطنطينية سنة ١٢٠٢ م وحرقهم لها ثلاث مرات بحيث دثر ثلثاها وأحرقت أعلاق الكتب التي جمعت فيها منذ نحو تسعمائة سنة ولما استولى هؤلاء الفاتحون على هذه العاصمة تفرقوا في اطرافها وانشأوا يسلبون كل ماتطول اليه أيديهم من أموال الناس وعروضهم الى آخر ماقاموا به من العيث في الكنائس والبيع التي انتقدت من لسان اللهيب وعبثوا بحليها وجواهرها وخصوصاً كنيسة ايا صوفية المشهورة فقد أخذوا كل ما اتحفها به الملوك والاغنياء من

الجواهر والحلي والنفائس باعوا بعضه بيع السماح وأتلفوا الآخر كأنه لا قيمة له الى نظائر ذلك مما قاموا به من الاعمال الوحشية التي فصلها حق التفصيل المؤرخ نيكيتاس احد رجال دولة الروم .

واستفاض المؤلف فيما آل اليه أمر مكتبة الاسكندرية من الحريق بقضاء الله وقدره سنة ٤٧ ق . م وخرابها للمرة الثانية بحملات رئيس الاساقفة الاسكندري وجماعته عمداً قبل الهجرة بثني سنة وإحراق ماجمع في زهاء تسعمائة سنة منذ جعلت القسطنطينية عاصمة لدولة الرومان الى استيلاء اللاتين عليها بداعي ماحدث فيها من الفتن بين الروم واللاتين . وان ما انقذ من هذه الحرائق من الكتب أتى عليه اللاتين بجهلهم واستهزائهم بالمعارف وأهلها حتى ان مصر لما فتحها المسلمون لم يبق لمكتبة الاسكندرية فيها عين ولا أثر ولما فتحت الاستانة أيضاً لم يكن فيها عاديات ولا اعلاق بتاتاً .

وقد صرح جيبون في تاريخه على سقوط دولة الرومان بان نسبة الحريق لعمر أو لعمرو أكذوبة لفقها أبو الفرج رئيس أساقفة حلب على طائفة اليعاقبة احدى الطوائف المسيحية بعد مضي نحو ستمائة سنة من الهجرة في تاريخ له ألفه بالعربية ولما نقل ما كتبه الى اللاتينية انتشرت هذه الأغلوطة في أوربا . ومما قاله أبو الفرج ان عمر بن الخطاب أصدر أمره الى عمرو بن العاص باحراق هذه الكتب اكتفاء بما في القرآن من العلم وادعى ان هذه الكتب وزعت على اربعة آلاف حمام في الاسكندرية فظلت المواقد تحرقها حصباً ووقوداً ستة أشهر لاتحتاج الى

غير لهيب تلك الكتب لاحماء الماء (١)

قال جيبون : لايخفى على اهل البصر ان مكتبة الاسكندرية احترقت قبل الميلاد وما زعمه رئيس اساقفة حلب من ان المسلمين احرقوها لم يتعرض له مؤرخ واحد ممن ظهروا قبل ابي الفرج حتى ان افتيكيوس بطريرك الاسكندرية عند توسعه في الكلام على استيلاء المسلمين على الاسكندرية لم يذكر كلمة عن حرق عمرو بن العاص لهذه المكتبة . وبهذا علم ان هذه أسطورة ملفقة بالكذب المحض .

على ان الاسكندرية كانت من القديم مقر البطاركة ومنبعث المجادلات المملومة التي حدثت في مسألة الالوهية . فلو صح انه كان في هذه المدينة مكتبة كما زعم ابو الفرج حين فتحها واحترقت بأمر عمرو بن العاص لاستخدمت تلك المجلدات الضخمة التي ملئت بمباحث تلك المسألة المذكورة ومقالات المناقشين فيها في غير إحماء ماء الحمامات . وهب ان العرب احرقوا تلك المجلدات فقد ازالوا كثيراً من الافكار الباطلة التي الف الناس الاشتغال بها عبثاً وخدموا عالم الانسان خدمة عظيمة .

قال المؤرخ التركي بعد ان اورد هذه الجملة عن المؤرخ جيبون : من البديهي انما افترض المؤرخ المومأ اليه وقوعه وما زعمه رئيس الاساقفة

---

(١) يكفي في نقض ما بناه رئيس الاساقفة الحالي من الوهم قوله ان اربعة آلاف حمام شغلت باحراق مكتبة الاسكندرية وما اظن ان هذا العدد من الحمامات يوجد في القطر المصري والسوري ايام استبحر عمرانهما . ومن المحقق ان مدينة دمشق وهي مشهورة بكثرة مياهها وتوفر حماماتها لم يكن فيها حين زخرت بحار حضارتها ما ينيف على مئة حمام فلو فرضنا ان عمران الاسكندرية كان اربعة اضعاف عمران دمشق وهو بعيد لاقتضى على ذلك الحبر ان يحذف صفراً واحداً

المذكور من حريق عمرو بن العاص لمكتبة الاسكندرية التي ماثلت بالمجلدات الضخمة في مباحث الالوهية أو مؤلفات الحكماء المتقدمين على فرض وقوعه فليس من العقل ولا من الحكمة ماروي في كيفية حريقها . وغير نكير ان هذه فقرة وضعت بعد لمآرب وغايات

ولو كانت عقدت النية على إحراق هذه الكتب كما ادعى رئيس الاساقفة لمطابقتها للقرآن العظيم أو لمباينتها له لاقتدر عمرو بن العاص ان يبيد هذه الكتب بحضرته جملة واحدة في يوم واحد وربما في ساعات معدودة وكان في غنى عن تسليمها لاصحاب الحمامات في الاسكندرية ولاهل هذا الثغر وكلهم من الروم يحرقونها كما يجب ويرضى بما تلهمهم اليه معرفتهم . نعم كان ابن العاص يحذو حذو مسيحي اسبانيا لما استولوا على قرطبة واحرقوا في يوم واحد زهاء مليون مجلد من مصنفات علماء المسلمين وكانت في عدة مكاتب على ماروى المؤرخ دياردو

ومن البلاهة والحماقة أن يصدق ان عمر يختار هذه الطريقة في إبادة الكتب ويدفعها الى أرباب الحمامات في الاسكندرية وينقطع عن وظيفة الجهاد المقدسة مع رجاله من المسلمين وعددهم لا يتجاوز أربعة آلاف رجل حين استيلائه على مصر لينقطعوا الى احراق كتب دونت بلغة أعجمية ويصرف في ذلك خمسة أشهر أو ستة في قمامين الحمامات مما لا يقبله العقل ولا يوافق الحكمة . واني لارباب الحمامات في الاسكندرية وهم من بني الروم ان يحتفظوا بهذه الكتب ويحرقوها في غياب المسلمين حصباً لحماماتهم فاحر عند ذلك ان ينحي باللائمة على الروم لا على المسلمين باختلاق فئة من الجهال وخصوصاً بعض أصحاب الاغراض

نقض الكاتب التركي ماأتى به بعض أرباب الاهواء وزيفه بالبرهان السديد ثم نقل ماقاله رئيس مدرسة آثينة الكلية في تاريخه العام عند كلامه على الاسكندرية من ان هذه المكتبة حرقت لدن وصول قيصر الى مصر وان مابقي من الكتب تلف قبل استيلاء المسلمين على الاسكندرية بزمن طويل وان مايحكى من ان عمرو بن العاص حرقها ان هي الا فقرة مدخولة بعد هذا . وقد عرب ماتقدم حباً باظهار حقيقة طال البحث فيها وتعارضت الآراء بأمرها والحقيقة ضالة كل باحث ومستفيد

مصر

معربة عن الفرنسية

بلادها ـ مصر عبارة عن وادي النيل وهي في مضطرب ضيق خصيب ممتد على ضفتي النهر بين سلسلتين من الصخور طولها ٢٤٠ فرسخاً ويكاد عرضها لا يتجاوز خمسة فراسخ وعند منقطع الصخور تبدأ الدلتا . وهناك سهل واسع تتخللهُ شعب النيل وترعه . فمصر كما قال هيرودتس أبو التاريخ هبة من النيل .

النيل ـ يزخر النيل كل سنة في الانقلاب الصيفي بصارات ثلوج بلاد الحبشة فيفيض على أراضي مصر العطشى يرتفع ثمانية أمتار وأحياناً عشرة فتصبح البلاد كالبحيرة وتبرز القرى المشيدة على الآكام كانها جزيرات ثم تنخفض المياه في أيلول (ستمبر) ويعود النهر في كانون الاول (دسمبر) الى مجراه الاصلي وقد ترك في كل مكان طبقة من الطين خصبة وهي الاءبلز وتسمى الطمي . هذه الرواسب تقوم مقام السماد ويكاد يزرع في التربة الندية بدون حرث . فالنيل إذاً يأتي مصر بالماء والتربة واذا تحول عنها تعود